هندسة

أقصوصة مصرية

بقلم الآنسة جميلة العلايلي

على وجهها معانى وجوه كثيرة تحمل من الكآبة مسحة بادية ، ويروعك هذا الجرى المتواصل وراء ألفاظها التى تحتبس وراء شفتيها كلما همت بأن تتكلم

هامت بدنيا مجهولة غير محدودة ، تتبرم بدنياها وتنشد فى أحلامها ما عجزت عن تحقيقه فى يقظة العيش ، وهذا من وحى الغريزة الفكرية .

تعيش فى دنيا فنية ابتكرتها لنفسها اعتقاداً منها أن الفن مفزع الإنسانية فى مختلف أدوارها ومنجاتها من شرور الدنيا وسطوة الأقدار — والدين الوضعى كما قال «جوركى» أول مظهر فنى ابتدعته القريحة البشرية — ابتدعته بعد أن راعتها تفاهة الحياة وسطوة العدم ؛ لذا خلقت لها دنيا ثانية ، تنعم فى أجوائها بفكرة الخلود ، وصفاء العيش الهنى بعد أن أمعنت بها صفعاً قسمة الموت ، وسلاطة السلطان فى أيدى القدر

وهى فى مفزعها هذا تحاول تلمس الروح السرمدى بأسابيها العشر ، وهى ليست شاعرة أو فنانة فحسب بل هى راهبة ، لا تقنع بنشد الطمأنينة والصفاء فى هيكل واحد . . . ولكنها تنتقل من دير إلى دير تجر وراءها أثقالاً من الشجن ، وكأنها تخشى أن تهوى ثانية إلى عالم الماديات والحب الضائع ، والحسنة التى تجزى بالشر . . .

وإذا حادثتها تدرك وراء ذلك كله ظمأ لا تنقع له غلة ، يحدوها ارتياد المجهول ، تتلمس فيه قبض الريح — فتتألم لها ، وتخالجك نزعة من الإشفاق عليها ، ولكنك تكبر فيها الألم الكبير الساجى ، وتباركه كأنك صهرت معها فى بودقته .

تعذب نفسها وتشقيها ، وفى يدها خلاصها ! وكأنى بها واحداً من أولئك الشهداء الذين أبوا إلا أن يعيشوا شهداء ، ويقضوا شهداء ؛ ممدودين فى سبيل غاية ، وتحقيق أمل بعيد . . .

لذا كان من العسير أن يفهمها أى رجل ؛ وكذلك من العسير أن تحب أى رجل ، لأنها تتعالى عن التجارة بالحب أو تكلفه .

عاشت العشرين من عمرها بل أكثر مجنحة حالمة تنتقل بين الأرض والسماء . عذاب لا ينتهى ، وظمأ لا تنقع غلته . هى مشبوبة القلب ، تحلق ولكن سرعان ما تجتذبها الأرض فتجثم على صفائها منتفضة الأوصال ، بادية الأشاجع ، ناحبة متبرمة . . .

ثم تدوى فى أذنيها أناشيد الرجاء ، ويختلجها الحنين إلى المجهول النائى ، إلى الغامض الذى لا يفسر ، ولا يسقط عنه قناع . فتضرب الهواء بجناحيها ، ويحلق عقلها ، وهو نور ونار ، محموماً محوماً فى السماء . غير أن الجناحين جبلا من صلصال مهين . . .

لها الله . . . لها الله . . .

تنشد حياة الروح مجردة من المادة . . .

بأى عقل تطلب ذلك ؟ . . .

وقد أبت الطبيعة عليها ذلك بعد أن لفحت إنسانيتها السامية بغرائز ترابية فى حمأتها تتوالد جراثيم اللذة ... لذة الجسد ولذة القلب !

ثم ترجو الحب الروحى البعيد عن الماديات . فهل نسيت أن القلب البشرى يتفجر دماً يغذى معين البهيمية فى نفوسنا . . . وأن هذا الخافق المتململ ملول مضطرب متقلب كصفحة الماء ؟ !

يحرق ما يعبد ليعود ثانية إلى عبادة ما يحرق !

ثم تثور غرائزها بغير حق ولا داع ! محاولة الترفع على ما منيت به من ضعف متمنية أن تكون أسمى من امرأة !

امرأة بما يصطخب فى قلبها من تيارات فائرة ، وينابيع صافية ساجية ، ولو أنها أخذت الحياة كما هى وفاقاً لناموسها الأزلى ، فتكون إنسية آدمية قبل كل شىء . ثم تسبح بعد ذلك كما يحلو لها فى أخيلتها ، وتعيش بأنوثتها ... لها دفء الجسد ، وطراوته وجاذبيته ... ولها أيضاً قداسة الروح وسحرها

أبسط الأشجار ظلالاً وأعلاها رءوساً هى تلك التى تغور جذورها بعيداً فى جوف الأرض

أجل لو أنها أخذت الحياة كما هى لما تنكرت لها الأشياء فى وجهها وهى جامحة تجرى وراء تحقيق مثل عليا

الجبل عال ، والشقة بعيدة إلى القمة ، والقمة تغطيها الثلوج ... ولو كتب لها الوصول إليها فهناك البرد القارس الذى يحولها إلى كائن ثان يتجمد على مهل . وهناك الدوار ، وهناك التجرد من حالة للدخول فى حالة أخرى لا تعرف كنهها تماماً ، ولكن أبين مظاهرها موت الغرائز الدافئة !

لقد أرهفت حسها تحت مؤثرات مجهولة حتى من نفسها ، ومن هنا انبعث عذابها الدائم وانطلق تبرمها بالناس فتحولت الحياة فى ناظريها إلى كائن بغيض وهى جمة المحاسن وافرة الرواء . وغالباً يلبس هذا المرض فئة من الشعراء فيحيلهم شكاة متبرمين بالحياة الدنيا يتلمسون بلا طائل السعادة فى المجهول فيما ضنت به الأرض عليهم

ولطالما حاولت أن تكون فتاة حياة تعيش على الأرض التى جبلت من طينتها ، وحاولت أن تخلط ذهب روحها بشىء من النحاس ليصلب عوده ويقوى على احتمال ما يرتطم به من الماديات لعلها أنه لو لم يخالط الذهب بالنحاس فى الجنيه لتلاشى بين أصابعنا

على أنها لم توفق فى محاولتها لأن الخيال ملك ذهنها وزج بها فى مفاوز موحشة لا حد لها ... مع أنها فى مقتبل الشباب ولها من هذا الشباب وسامته وعبقته ولم تأبه لزهرة هذا الشباب أن تصوح تحت رياح الصحراء ... كل من يعرفها ويلمس روحها يحار فى تفهمها ولا يدرى باعث تبرمها من الحياة !

أمن وحدة روحها ؟

أم من خيبة حب ؟

أم من غرام بلا أمل ؟

أم من حرمان بعد متعة طاغية ؟

لا هذا ولا ذاك ...

ولو أنها كانت كذلك لما أدى ذلك إلى قنوطها الجاثم على صدرها فى عنف غير لين ... ثم إن الأمل الذى سعدت به فى ماضيها يظل يعاودها من حين إلى حين مهما قست الأيام عليها

ولو شاءت العبث بالحياة والرجال لهان عليها الأمر لأنها محبوبة مغرية مرغوب فيها ... ولكنها تريد أن تكون همزة الوصل بين الإيمان والحب والسن

المفقود خلف العدم ... راغبة فى أن تشاهد دخان نفسها وهى تحترق فى بطء لتسجل شجوها فى سطور وترسمها فى خطوط وظلال ، ثم تصورها فى نغم وألحان ، شاعرة بأنها تغتسل بالألم وتتطهر بالحرمان وهى بهذا وذاك كلمة الخلود على شفتى الأزل

* * *

وأخيراً سجنت نفسها ، ومحبسها شبكة وشائجها من نسيج روحها وهى روح طغت عليها لذة الألم حتى ألفتها فغدت بهجة الدنيا فى عينيها أحلاماً زائفة ، ولم يشفع أنها ما زالت فى عمر الزهرة التى خرجت من برعمها تستقبل النور

وسجانها حس مرهف فيه شحذت غراره المحن فصار دقيقاً يؤثر فيه عبر النسائم

آدمية حائرة ، وفيلسوفة شاعرة ... هذه هى الهندية الساحرة

الورد فى عينيها إذا لم يرتعش للنسيم شوك على غصن ! !

وتغريد البلبل فى سمعها إذا لم يطرب له الكون الحزين ، ترتيلة الفناء !

وفى سبيل إيمانها وعقيدتها تشد إلى العذاب مسلمة جسدها الثعبانى المتيقظ إلى مسامير الموت الحادة

كل معنى من معانيها مأساة ، وكل لفظ من ألفاظها جرح يدمى ، وفى كل جرح من جروحها إنسانية تنتحب

وليس ألمها لمصيبة حلت بها ... إنما تتألم بإحساس قلوب جميع المتوجعين المظلومين المفجوعين المحرومين ... ترى مآسى الإنسانية كلها من وراء عينيها ، ويا ويحها من إحساسها وألمها ...

كبرت روحها دون جسمها وأثقل قدميها حمل رأسها فتألمت حتى بكت

وهى لا تدرى أن الأرواح تحوم حواليها وأن العيون تترصدها ...

وكل الرجال تخافها بقدر ما ترغب فيها وتحبها عدا ذلك الرجل الذى حاول أن يتقرب إليها فصدته فى كبرياء وأنفة ...

تولد من حبه الوليد مقت شديد ... ففكر فى التغرير بها لكى تحبه فإذا استسلمت له انتقم لرجولته المهانة ...

إنما الفتاة ذكية حساسة ومثلها لا يهبط إلى الحضيض ...

وقف الرجل فى طريقها متأهباً للكفاح وهو على يقين من أن النصر حليفه ... وكيف يشك فى قدرته وقد حبته الطبيعة قدرة الرجولة الصارمة وهى امرأة ضعيفة لينة

إنما كيف السبيل إليها ؟

هذه هى المشكلة ؟ ...

رجولة تحارب أنوثة

الرجولة تحارب بعقلها

والأنوثة تحارب بقلبها

ترى لأيهما الغلبة ...

فى مقدور الشيطان أن يدخل إلى المايدليوسوس فى الصدور ... ولكن ليس فى مقدوره أن يزعزع الإيمان الثابت ...

كان الرجل شيطاناً ... والمرأة مؤمنة ...

والحرب ستقوم بينهما ...

ترى لأيهما الغلبة

مهنة الرجل التمثيل وهو يجيد عمله كفنان حاذق

ودعا الفتاة عن طريق صديقة لها لتحضر رواية ستمثل على مسرح الأوبرا ...

أجاد تمثيل دوره وقد كان بطل المسرحية ... حتى خيّل إلى الفتاة وهى تتأمله عن كثب أنه خلق ليكون زاهداً وأنه يتحرك ويتكلم على المسرح فى غير كلفة . . .

يفعل الفن بالنفوس ما لا يفعله سلطان القدر وهمست صاحبتها فى أذنها ... ألا يجدر بنا أن نهنئ البطلة والبطل ؟ لقد أجادا

فوافقت الفتاة راضية ...

وذهبا خلسة ...

ابتسم الرجل الفنان ... إذ بدأ نصره يبدو ولكنه لم يكد يحملق فى وجه الفتاة الحالم الهادئ حتى خشع أمام العبقرية المسجونة ...

وشكرها فى تأدب على تشجيعها وأكد لها أنه بفضل هذا التشجيع سيبلغ قمة الفن عما قريب فنان زاهد ...

كان هذا الخاطر شاغل ذهن الفتاة على أثر مشاهدة الممثل البارع ...

أيمكن أن يكون قلبه عفا بريئاً طاهراً أبيًّا حقاً ...

لابد . . . لابد . . . إنه لم يتكلف الصناعة مطلقاً ... ولكن ألا يحتمل أن يكون مجرد تمثيل؟ ولكن ما الذى يعنيها ... ليكن زاهداً أو غير زاهد

بهذه الهواجس المتناقضة المتباينة شغلت نفسها حتى دعتها الصديقة لزيارتها ولقيته هناك فتحدثا حديثاً طبيعياً لا كلفة فيه ولا حذر وقد تلاشى كل ما كان يحفزه إلى الهجوم، وشعر أنه أمام قوة هائلة قادرة على تحطيمه ...

أخيراً قال :

— يا آنستى أمامك سبيلان لا ثالث لهما : إما إلى الموت أو الانقطاع عن العالم ، وإما أن تسلمى رأسك إلى مبضع الجراح يزيل ما يثقله من أورام الألم وطفيليات العدم ...

أنت فى إبان شبابك وحرام أن تكون الدنيا فى خاطرك وباصرتك متشحة بأكفان الموتى.

فنظرت إليه صامتة وهزت كتفيها فى بطء ثم غمغمت :

— ليكن ... إن فى الموت بداية حياة أخرى على أى حال ...

فابتسم فى مرارة قائلاً :

— أعرف أن النبوغ اتخذ كمينه فيك . . . لكن تنفسى ... تنفسى لينطلق حسّك

قالت : من أدراك أنى أختنق ... الزهر يتنفس أبداً أمام النسيم ... لكن أين من يشم العبير العاطر فيفهمه ؟ أين ؟ ... أين ؟ ...

وأحس الرجل أنه شد إليها بحبل متين فارتعد لخذلانه وأطرق برأسه واجماً .

بينا انسحبت الفتاة فى سكون ...

ظنها ستعود ... ولكنها غابت ...

سأل صديقتها ... فخرجت تبحث عنها فى المنزل فلم تجدها ...

خرجت دون استئذان ولا تحية ...

وتمتمت الصديقة : ظبى نافر. فلزم الرجل الصمت الحزين ولم يتكلم ...

قالت الصديقة : ماذا جرى ... أتفكر فيها ؟

قال : أجل ...

قالت : ولكنك تعبث بالقلوب وهى فتاة حذرة

تخطف القلب وتدع صاحبه صريعاً

قال : حسبه أن ينعم بالخلود فى قلبها ...

وعادت . فابتسم الرجل وانطلق وجهه ...

قالت صديقتها : كذبت عليك .

وأعقبت الفتاة : هيه ماذا تقول بعد أن قلت ، إما إلى الموت أو أسلم نفسى لمبضع الجراح ؟

قال : وما زلت أقول ذلك

فابتسمت على مضض قائلة : إلى الموت ياسيدى إلى الفناء ، لكن لأخلد الآخرين ! .

سأفنى نفسى فى ذات الإنسانية كلها موزعة قطرات دمى ونور روحى وصفاء ذهنى على كل بائس محروم ، إلى هذا الموت سأذهب

ولكن لأخلد من هم بالخلود أولى وأجدر .

فقال الرجل بصوت الهاجع : تعريدك يا آنستى يثير مكامن النفس وينزع كل خاطر من كمينه ، وأناشيدك مأدبة فاخرة تقدمينها للسابلة ولكنها تحمل عصارة روحك ...

وأولئك السابلة العابرون يسلمونها إلى الفناء البطىء المبا كر لينعموا بهذا التوقيع المروع ، أتركى غرائزك الفطرية تقدك ولكن أحسنى تلجيمها .

هنا انتصبت الفتاة ، وقد تلون وجهها بظلال الألم مستأذنة ، ثم انصرفت بعد أن ألقت عليه ابتسامة موشاة بالقلق .

ولما خلت إلى نفسها انمحى من ذهنها كل خاطر عدا كلمة الرجل « أتركى غرائزك الفطرية تقدك ، ولكن أحسنى تلجيمها »

حكمة لها معناها .

ما ضرها لو تمتعت بالحياة وخافت الله ! ...

وقضت الليل تفكر فى هذا المصير ...

بينا راح الرجل يناجيها بروحه ، ولكنه يخاف أن يقتل الرقاد فى عينيها فتفزع من نومها بتأثير من مغناطيسية روحه التى تسربت إليها ولكنه مرغماً يفكر فيها ويتخيلها فى ثيابها السود ككاهنة لإله جرت عليه تقاليد هذا العصر المادى ذيل الفناء .

ويتخيل نفسه شيطاناً غير متأثم يحاول أن يخرجها من سومعتها العاجية إلى الغوص فى أوحال هذا العالم

شد ما هى عظيمة فى وحشة روحها !

وشد ما هى فاتنة بنفورها !

وشد ما هو صغير بفلسفته الجافة !.

إن مثله ومثلها لا يجتمعان فى صعيد واحد ، وإذا اجتمعا فللنضال، إذ يحاول كل منهما أن يخضع صاحبه لاعتناق عقيدته .

وساءل نفسه :

أين الحقيقة فى روع كل منا ؟!

ومن منا على صواب فى نظرته إلى الحياة ؟

هى تأبى إلا أن تكون معلقة من شعرها بين الأرض والسماء ، وهوغائص بأقدامه فى جوف الأرض ...

كل منهما يمت إلى دنيا صاحبه ، وأى العالمين يجب أن يستقرا فيه ؟ ...

إن الحقيقة تبدو لهما كالشعاع من بعيد ولكن تتراءى لكل منهما على صورة مخالفة للأخرى ، إنها مركزة هناك أحياناً ، وتجرى أمامهما آنا .

وهب أنهما قطعا الليالى الطوال جرياً وراءها فهل يمكن أن يأخذا غير قبض الريح ؟

يشعر بأنه يقضى حياته متخبطاً فى الظلام رغم تهاويل مباهج الحياة ...

فهل يمكن أن يجتاز الظلام إلى عالم النور من عاش فى بطن أمه وهى ظلام فى ظلام وخرج منها يدب فى الظلام وسوف يدخل القبر فى الظلام !

فأحس برغبة جامحة للتصوف واستسلم بكليته إلى المجهول وأنكر ذكاء العقل البشرى واقتدار القوة الإنسانية

وتصور هواجسه هذه تطرقها فى محرابها وهى بين يدى الله ...

فارتد عنها متمنياً غفوة تنسيه ما هو فيه راجياً لها نوماً هادئاً ويقظة فرحة تطالع النور معها بجبينها العالى ونفسها القانعة قائلاً لنفسه : هنيئاً لها ما هى فيه ... وويلى مما أنا فيه

وكلانا أضحوكة فى فم الزمن وألعوبة فى يد القدر

وما كاد يتنفس لينام حتى أحس بضوء الفجر الوردى يلمس روحه بعد أن أكسب ظلمة الليل وهج الحريق

فتنفس الصعداء وتمتم :

ترى أينا يكسب نفس صاحبه وهج نفسه ؟

* * *

فى الواقع لم يتعمد الرجل أن يحبها ولكنه منذ رآها لم يعد يملك رد تفكيره عنها وراح يشعر أن تفكيره فيها نوع من الابتهال أو الإيحاء الساجى الوديع ...

وانزوى على نفسه فى صومعته تاركا كل شىء فى الوجود — عداها — شاعراً أنها هى دنياه الحافلة بمباهج الوجود ، وأن أحلامه وأمانيه تعمقت روحها وأحس عن يقين بأن حبه صادر من معين خصب يفور بعاطفة صادقة حلوة

لطالما أحب أو هكذا خيل إليه ...

لكنه الآن يشعر أن جميع عواطفه التى مرت بقلبه نسمات عابرة بددتها أعاصير الزمن ... عدا المرأة التى أحبها منذ سنين وبادلته الحب صرفاً ثم ماتت شهيدة بيد مجرم أثيم ...

تذكر هذه المرأة فتألم فى حرارة ثم تلاشى هذا الطيف وراء الدخان المتصاعد من أنفاسه اللامرئية ثم عاد يتكون حتى جسم طيف الفتاة فأحس بالدفء يلبس جسمه البارد وشعر بأطراف أناملها السحرية تمر برقة النسيم العاطر على شعره فتبث فى كيانه حيوية الانتعاش المحبب ...

اقترب منه الطيف فى شبه نور انبثق من وراء الأفق ... حتى واجهه ...

الحيوية تشع من عينيها والتوثب قائم على شفتيها وحرارة روحها تهب من طيات كلماتها الغامضة المبهمة التى ما تكاد تخرج من صدرها حتى تلتوى بين شفتيها فتبدو كظل مموج أكسب جسمها حرارة الجسد الإغريقى

ووقف الطيف أمامه صامتاً فأحس الرجل بأن الرهبة تلبست جسمه وانسرح بروحه فى ذلك المعنى الذى لا يدرك وتلك الروح الواهمة الظامئ التى لم تنتهل بعد من موارد الحياة ولذائذها ولاح له شغفها الذى لم يسأم يطل عليه من وراء كل جامحة فيها ...

كل ما فيها يقظ متوثب للعراك وللعناق وللفناء فى الجوهر الأسمى نور الحياة الذى يسمونه الحب

وطاب له أن يراها أمامه تمسك له المشعل مشعل الحب والأمل مجتازاً بأحلامه مراحل جديدة يسمع خلالها صوتاً منشداً أناشيد الأمل وأهازيج الغبطة يشدو الحنين وفى يمينها قيثارة ذهبية توقع عليها لحناً بغير كلام ...

نشيد جديد كلماته دم وأعصاب، وجرسه نبض قلب الهندية المدوى

وذاك اللحن يدوى ويصمت ويرتفع ويهبط ويتكسر وتتفرج أساريره

وطغى عليه الخيال حتى ظنها حقيقة ملموسة فاقترب منها وما كاد يمد يده ليصافح اليد الناعمة العازفة حتى جرت من أمامه ولمحها تجرى لاهثة تبغى الألم للذة وتسعى للذة ولتتألم، وترامى إليه صوت القمر يدوى منغماً فى شبه حذر :

(إجرى ... إجرى ... يا فتاة سيكون فى أوجه الرحلة أوج مجدك ومنها تصلين إلى القمة فترسلين إلى الإنسانية أشعة النور وتكونين أنت الشعاع المذاب فى قلب الوجود)

وانتبه بعد إغفاءة لا يدرى مداها فخيل إليه أنه ولد من جديد

تمنى لو يلقاها ... ولكنه لا يريد أن يراها. المرء لا يكتب شيئاً على الرمل ساعة هبوب الأعصار وهو لا يريد أن يراها خوفاً من أن تحرقه، وإذا احترق فسيكون احتراقه بدون لهب لأنها ليست امرأة عادية تقنع بمادة الحياة

هى امرأة تمر بالبرودة ناراً لافحة وتمر بالنار برودة مثلجة

مزيج عجيب من الحس المرهف والجمود المطلق

* * *

جاءها ليزورها مع صديقتها — فى الواقع جاءها ليدفن روحه على روحها فوجدها جالسة فى معبدها وهى غرفة جمعت فيها بدائع الفنون

فيثار اضطجع على مخدع وثير من ريش النعام كأنه حبيب استند إلى صدر ناعم وسنان، وفى ناحية أخرى مكتب متواضع تناثرت عليه أوراق احتفظت بخواطرها من النسيان، وبالقرب منها صور رمزية رسمتها فى مواقيت مليئة بالحسن المنوع. دخلا عليها وهى عاكفة على رسم زهرة تتيه بألوانها الزاهية يحوم حولها فراش

ونظر الرجل إلى الصديقة كأنه يقول لها : أنظرى لقد جذب الرسم نفسها من حيث لا تدرى ونظرت إليه الصديقة بمعنى : أن لها على كل شىء طابع الصدق والصراحة. وقف الرجل يتأمل الرسم ثم مد يده فى بطء وطمس الزهرة بالقلم الأسود وراح يدمدم : الآن ... لن تفزع الفراشة الوادعة وهى تدوم حوالى الوردة الناعمة وتحوم، ورسم بيده وهو لا يدرى كيف رسم — لأنه لا يجيد فن الرسم وإن كان يحبه — رسم زهرة (التوليب السوداء) التى إذا أطبقت أكمامها على الفراشة الحائمة حجبت عن عينيها وضح النهار وأوقعتها على رحيق لا تفيق منه أبداً

ونظر إليها مترقباً ما تقوله فلم تتكلم، وتلهت عنه بمخاطبة صديقتها :

فاغتاظ إذ كان يريد أن تعاتبه وتغضب، فلما خرجت صديقتها لشأن لها اقترب منها مشيراً إلى الرسم بطرف إصبعه قائلاً :

— ما رأيك فيما فعلت ؟

قالت — فهمت ما تعنيه

قال — أريد أن أفهم ما عنيته

قالت — حسبك أن أفهمك

قال — وأنا أريد أن أفهمك ؟

قالت — لن تفهمنى إلا إذا فنيت فىّ وهذا لن يحدث أبداً

فتنابى وتمتم : وما ذنبي حتى أموت ؟

فابتسمت قائلة : إنك ستحيا إنما على صورة أبهى وأروع ، سيموت كيانك وتخلد روحك

فقال فى حدة : هندية — هندية — هندية كيف ولدتك أمك المصرية ؟

قالت — ولم أسميتنى كذلك ؟

قال — إنك تفهمين فلماذا تسألين ؟

قالت — آه ... معك الحق ... أجل أنا هندية أومن بخلود الروح وأميل إلى أن يموت حبيبي من أجلى لأعيش من أجله

فاحتد قائلاً : هذا فظيع ، فظيع جداً ، هذه أنانية لا تتفق مع ابنة الإنسانية

قالت — أبداً ... إذا مات الإنسان فى سبيل الحق والشرف والصدق عاش على ضوء هذه الفضائل خالداً بخلود الأجيال ، راسماً على جبين الزمن نجماً لا يخبو أبداً ...

قال — وهل الحب يستحق الموت ؟ وإذا عجز الحب عن تخليد الإنسان أيسهل على الإنسان تخليد الحب ؟ لا أظن

قالت — لو فهمت الحب صحيحاً لعرفت أنه مكيف المثل العليا وخالق الفضائل السامية . . . إنه كلمة الله الصريحة التى نطق بها يوم خلق الضميرين الخالدين ... (هو — هى) ...

قال — إنك تبالغين فى تعزيز الحب ... مع أن أصل البلاء منه

قالت — كل فساد خلعت عليه لباس الحب كذباً لا ينتمى للحب الأكيد بصلة ، اسمع إنكم تموتون فى اليوم أكثر من مرة ... تموتون بالكذب والخداع وأنتم لا تدرون ... ومن يموت فى سبيل الكذب يكون أشبه بالوقود ... ينتهى بانتهاء اللهب

أما من يموت فى سبيل الصدق فيكون أشبه بالنور يتلاشى فى الأفق ولكنه يضىء الكون للعالمين ...

فلماذا لا نتخير الحياة العليا ؟ فقال مستخفاً : النهاية مرسومة منذ الأزل. فقالت : حسن... لكن لماذا لا يذهب المرء إلى نهايته راضياً مطمئناً على شفته بسمة الإيمان بدل أن يذهب قلقاً خائفاً فى عينيه دمعة الكفر. كانت تتكلم بصوت عميق ... عميق .... فيه حرارة الإيمان الأكيد

فخشع الرجل وقال : إرفعينى إلى سمائك إن كانت لك سماء لم أتعرفها بعد، ولن أحاول أن أنزلك إلى أرضى أيتها الهندية المجنحة . وقبض على يدها فى احترام مردفاً : صفاء عينيك ونقاء روحك أسكبهما فى بسماتك ونظراتك « دائماً » لتعاودني ذكري هذه الساعات العامرة بالإيمان الحلو الرطيب ولكى تردنى إلى كثير من أحلام الخامسة الأولى ...

وانحنى فى خشوع مقبلاً طرف رداءها متمتماً والدموع تراود عينيه ...

إنى أفعل ذلك طاهراً متطهراً من كل شائبة، فمثلك جدير بهذا التقديس حتى من أمثالى الأبالسة..

فأطرقت مليا مفكرة ... ثم رفعت اليه بصرها وقد فاضت دموعها قائلة : أيها الشيطان الشقى ... سأحبك لأهديك ... وأقتلك لأخلدك

« المنصورة » جميل العزبى